حديث "لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"

- دراسة عقدية -

دكتور/ طلال بن فواز الحسّان الشمري

الأستاذ المساعد في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

مسألة الإيمان من مسائل العقيدة المهمة، وقد كثُر حولها الخلاف، واضطربت فيها آراء كثير من الطوائف، وأهل السنة والجماعة هم أسعد الناس بالنصوص الشرعية، وأدقهم فهمًا لها، والنصوص تشهد لصحة عقيدتهم وسلامة منهجهم، وحديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) من الأحاديث العظيمة التي تقرر أصول الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وتُبيّن عمق فهمهم وسلامته من الانحراف، وعلى اطراد قواعدهم وتقريراتهم، وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على دخول العمل في مسمى الإيمان، وعلى زيادة الإيمان ونقصانه، وعلى التلازم بين الظاهر والباطن، وفيه كذلك نقض لأصول المرجئة في مسألة الإيمان، وبيان انحرافهم ومخالفتهم للمنهج الحق.

وقد سلكتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، من خلال استقراء نصوص المادة العلمية، وتحليلها في ضوء ما رسمته من أهداف هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: يحافظ، الوضوء، مؤمن، الإيمان، عمل.

The Hadith "Only a Believer Maintains Ablution -.A Theological Study-

Prepared by: Dr. Talal bin Fawaz Al-Hassan Al-Shammari
Saudi academic, Assistant professor
College of Fundamentals of Religion
Department of Contemporary Doctrine and Doctrines
Imam Muhammad bin Saud Islamic University

ABSTRACT ::

The issue of faith is one of the most important matters of faith. It has been the subject of much debate, and the opinions of many sects have been mixed. The Sunnis are the happiest people with Islamic texts and the most accurate in their understanding of them. These texts testify to the soundness of their faith and the integrity of their methodology. The hadith, "Only a believer maintains ablution," is one of the great hadiths that establishes the fundamentals of faith for the Sunnis. It demonstrates the depth of their understanding and its clearness from deviation, as well as the consistency of their principles and rulings. This hadith clearly indicates the inclusion of action within the concept of faith, the increase and decrease of faith, and the interdependence between the external and internal aspects. It also refute the Murji'ah's - a sect- principles on the issue of faith, revealing their deviation and opposition to the true methodology.

In this research, I followed an analytical inductive approach, by extrapolating the texts of the knowledge material and analyzing them in light of the objectives I outlined for this research.

Keywords: Maintains, ablution, believer, faith , worship

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلّي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد:

فإن منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الحق الذي ينطلق في أصوله وفروعه من أدلة الكتاب والسنة، بفهم السلف الصالح، فهم أسعد الناس بالنصوص الشرعية، وأشدهم تعظيمًا لها واتباعًا لدلائلها، ولذا كان من أعظم أبواب العلم نفعًا وأكثرها بركة الإقبال على دراسة هذه النصوص والنهل من معينها المبارك، ويعظم الانتفاع إذا كان ذلك في سبيل تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في ضوئها، وبيان منهجهم في العقيدة من خلالها، وطريقتهم في بناء المسائل والدلائل، ومن هذا المنطلق اخترت أحد الأحاديث الصحيحة المخرّجة في دواوين السنة لدراسته عقديًا، وهو حديث **(لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن).**

ومما يبيّن أهمية الموضوع وأسباب اختياره ما يلي:

١- ضرورة تأصيل مسائل الإيمان من خلال الأدلة الشرعية، وبيان استناد منهج أهل السنة والجماعة في تقريراته وقواعده على الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

٢- أهمية هذا الحديث في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في باب الإيمان، ودلالته الصريحة على صحة منهجهم وعمق فهمهم.

٣- أن هذا الحديث فيه رد صريح على مذهب المرجئة في الإيمان، وفيه نقض مباشر لأصولهم المنحرفة التي أصّلوها في باب الإيمان.

٤- كثرة الانحرافات الواقعة في باب الإيمان، ولذا؛ فإن دراسة هذا الحديث عقديًا، وبيان دلالاته من الأمور المهمة التي تُسهم في بيان المذهب الحق من خلال تقريرات العلماء.

- **أهداف البحث:**

١- بيان دلالة هذا الحديث على دخول العمل في مسمى الإيمان.

٢- بيان دلالة هذا الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه.

٣- بيان دلالة هذا الحديث على التلازم بين الظاهر والباطن.

٤- كشف انحراف المرجئة في باب الإيمان من خلال هذا الحديث.

- **منهج البحث:**

سأسلك في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، من خلال استقراء نصوص المادة العلمية، وتحليلها في ضوء ما رسمته من أهداف هذا البحث.

- **خطة البحث:**

وتتكون من تمهيد، ومقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المقدمة، وفيها: أهمية البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

التمهيد، وفيه:

أولاً: تخريج الحديث.

ثانيًا: بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

المبحث الأول: دلالة حديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) على دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

المبحث الثاني: دلالة حديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) على زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الثالث: دلالة حديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) على التلازم بين الظاهر والباطن.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد، وفيه: تخريج الحديث، وبيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

أولًا: تخريج الحديث

عن ثوبان رضي الله عنه أن رَسُولَ ﷺ قَالَ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**».

هذا الحديث أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، من طريق علي بن محمد، عن وكيع، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

وأخرجه أيضًا: أحمد في مسنده[١]، والطيالسي في مسنده[٢]. والدارمي في سننه، في كتاب الصلاة[٣]، والطبراني في الأوسط[٤]، والحاكم في المستدرك[٥]، والبيهقي في السنن الكبرى.[٦]. أخرجوه جميعهم من طريق سالم. وأخرجه ابن أبي شيبة عن عبدالله بن عمر[٧].

الحكم على الحديث: حديث ثوبان ورد من طرق في بعضها انقطاع؛ لأن سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان، ولم يلتق به، كما صرّح بذلك الإمام أحمد حيث قال: " لم يسمع سَالِم من ثوبان ولم يلقه"[٨]. والترمذي في العلل الكبير[٩]، إلا أن الحديث صحيح بمجموع طرقه.

وممن صحح هذه الطرق ابن عبدالبر حيث قال: " وهذا يتصل ويستند من حديث ثوبان عن النبي ﷺ من طرق صحاح"[١٠]. فقد جاء عند الدارمي[١١]من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان. قال البيهقي: " وهذا إسناد موصول"[١٢].

وقال البوصيري: " هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان؛ فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طريق أخرى متصلة أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده، وأبو يعلى الموصلي والدارمي في مسنده، وابن حبان في صحيحه من طريق حسان بن عطية

(١) انظر: مسند أحمد (٦٠/٣٧) برقم (٢٢٣٧٨).
(٢) انظر: مسند أبي داود الطيالسي (٣٣٦/٢) برقم (١٠٨٩).
(٣) انظر: مسند الدارمي (٢٤٤/١) برقم (٦٦٢).
(٤) انظر: المعجم الأوسط للطبراني (١١٦/٧) برقم (٧٠١٩).
(٥) انظر: مستدرك الحاكم (٢٢١/١) برقم (٤٤٨).
(٦) انظر: سنن البيهقي (٢٧٥/٣) برقم (٢١٧٨).
(٧) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (١٥/٢) برقم (٣٥).
(٨) انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٣٢/١٠).
(٩) انظر: العلل الكبير للترمذي (٣٣٦).
(١٠) التقصي لما في الموطأ من أحاديث النبي ﷺ لابن عبدالبر (٥٠٥/١).
(١١) انظر: سنن الدارمي (٥٢٠/١) برقم (٦٨٢).
(١٢) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٢٤١/٤) برقم (٦٨٢).

أن أبا كبشة حدثه أنه سمع ثوبان، ورواه الحاكم من طريق سالم عن ثوبان وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة"(١).

وقال الألباني في إرواء الغليل: "أخرجه الدارمي وابن حبان في صحيحه من طريق ثوبان متصلًا. يعنى الطريق الآتية وهى: الثانية: عن أبى كبشة السلولي أنه سمع ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول: " سددوا ، وقاربوا ، واعملوا وخيروا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ... " الحديث.

وأخرجه الدارمي وأحمد والطبراني في المعجم الكبير ، عن الوليد بن مسلم، حدثنا ابن ثوبان، حدثني حسان بن عطية؛ أن أبا كبشة السلولي حدثه به. قلت: وهذا إسناد حسن متصل بالتحديث، ورجاله كلهم ثقات رجال البخاري غير ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت، وهو حسن الحديث. الثالثة: عن عبد الرحمن بن ميسرة، عن ثوبان مرفوعًا بلفظ: " استقيموا تفلحوا ، وخير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ ... " الحديث. رواه أحمد بإسناد صحيح إلى ابن ميسرة ، وأما هذا فقد وثقه العجلي، وروى عنه جماعة منهم حريز بن عثمان وقد قال أبو داود شيوخ حريز كلهم ثقات. **فالإسناد صحيح إن شاء الله تعالى**"(٢).

ثانيًا: حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

من أصول أهل السنة والجماعة في باب الإيمان؛ أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح. وهذا موضع إجماع عندهم، قال محمد بن سليمان: سمعت سفيان بن عيينة يقول: " الإيمان قول وعمل، قال ابن عيينة: أخذناه عمّن قبلنا قول وعمل، وأنه لا يكون قول إلا بعمل"(٣).

وقال الإمام الشافعي: " وكان الإجماع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، لا يُجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر"(٤).

وقال الإمام البخاري: " كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمن قال: الإيمان قول"(٥).

وقال ابن عبد البر: " أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان، إلا ما ذكر عن

(١) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري (٤١/١).
(٢) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لناصر الدين الألباني (١٣٧/٢).
(٣) السنة لعبدالله بن الإمام أحمد (٣٤٦/١).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (٩٥٦/٥).
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (٩٥٩/٥).

أبي حنيفة وأصحابه، فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانًا، قالوا: إنما الإيمان: الإقرار والتصديق"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر أهل السنة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك"(٢).

وقال أيضًا: " وروى أبو عمرو الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال: أملى علينا إسحاق بن راهويه أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة؛ وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وهلم جرا، على ذلك وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد، لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالعراق؛ ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن على ما فسرنا وبينا: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص"(٣).

فهذه هي حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وأنه قول وعمل، فهو في حقيقته مركّب من أربعة أجزاء:

أولًا: قول القلب، ويُقصد به: التصديق والإيقان.

ثانيًا: عمل القلب، ويُقصد به: وهو النية والإرادة، قال ابن منده: " فمن أفعال القلوب: النيات والإرادات والعلم والمعرفة بالله، وبما أمر به والاعتراف له والتصديق به، وبما جاء من عنده والخضوع له ولأمره، والإجلال والرغبة إليه، والرهبة منه والخوف والرجاء والحب له ولما جاء من عنده، والحب والبغض فيه، والتوكل والصبر والرضاء والرحمة والحياء والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه وإخلاص الأعمال كلها مع سائر أعمال القلب"(٤). وفي بيان الفرق بين قول القلب وعمل القلب يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: " والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه"(٥).

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٣٧٦/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠٨/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠٨/٧).

(٤) الإيمان لابن منده (٣٦٢/٢).

(٥) التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة للسعدي (١٠٦).

ثالثًا: قول اللسان، وهو ما يقوم باللسان من العبادات من "الإقرار بالله وبما جاء من عنده: والشهادة لله بالتوحيد ولرسوله بالرسالة ولجميع الأنبياء والرسل، ثم التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل، والثناء على الله، والصلاة على رسوله، والدعاء وسائر الذكر"(١).

رابعًا: عمل الجوارح، ويُقصد به ما يقوم بالجوارح من الأعمال الصالحة والطاعات والقربات.

فهذه الأجزاء الأربعة تتكون منها حقيقة الإيمان، وهي متصلة ببعضها ومتلازمة، لا ينفك أحدها عن الآخر، قال سفيان الثوري: " ولا يجوز القول إلا بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بمتابعة السنة"(٢).

وقال الإمام الآجري: "باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح لا يكون مؤمنًا، إلا أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث .... ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا، ولا تجزيء معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال: كان مؤمنا دل على ذلك القرآن، والسنة، وقول علماء المسلمين"(٣).

ومن أصول أهل السنة والجماعة في باب الإيمان أنه يزيد وينقص، فقد جاء التصريح بلفظ زيادة الإيمان في مواضع عدة من كتاب الله، منها:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر: ٣١].

وكان السلف يستدلون على نقصان الإيمان بألفاظ الزيادة الواردة في القرآن الكريم؛ لأن كل ما يقبل الزيادة؛ يقبل النقصان، ولمّا "قيل لسفيان بن عيينة الإيمان يزيد وينقص؟ قال: " أليس تقرؤون القرآن؟ ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٧٣]. في غير موضع، قيل: ينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص"(٤).

---

(١) الإيمان لابن منده (٣٦٢/٢).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (١٧٠/١).
(٣) الشريعة للآجري (٦١١/٢).
(٤) الشريعة للآجري (٦٠٥/٢).

وقال الإمام أحمد: " إن كان قبل زيادته تامًا، فكما يزيد كذا ينقص"(١).

فكل دليل جاء بلفظ الزيادة فإنه يدل على النقصان، قال ابن عثيمين: " وكل نص يدل على زيادة الإيمان، فإنه يتضمن الدلالة على نقصه؛ وبالعكس؛ لأن الزيادة والنقص متلازمان، لا يعقل أحدهما دون الآخر"(٢).

وزيادة الإيمان تكون بفعل الخير والطاعات، ونقصه يكون بارتكاب المعاصي والسيئات، قال الإمام أحمد: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيعت نقص"(٣).

وكلام الصحابة رضي الله عنهم كثير في بيان هذا الأصل، وأن الإيمان يزيد وينقص، ومن شواهد كلامهم على ذلك قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أم منتقص"(٤).

وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: " هلمّوا نزدد إيماناً، فيذكرون الله"(٥).

وكان من دعاء ابن مسعود رضي الله عنه: " اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهًا"(٦).

فلفظ الزيادة والنقصان لفظ مستفيض عن الصحابة، ولم يعُرف فيه مخالف منهم، قال ابن تيمية: " ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص ومنهم من يقول: يزيد ولا يقول: ينقص كما روي عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول: يتفاضل كعبد الله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة"(٧).

(١) السنة للخلال (٥٨٨/٣).
(٢) فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (١١٩).
(٣) السنة للخلال (٦٠٨/٢).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (١٠١٦/٥).
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (١٠١٢/٥).
(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (١٠١٣/٥).
(٧) مجموع الفتاوى (٢٢٤/٧).

المبحث الأول: دلالة حديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) على دخول الأعمال في مسمى الإيمان

من أصول أهل السنة والجماعة المُجمَعِ عليها؛ أن العمل داخل في مُسمّى الإيمان، وقد تواترت آثار الصحابة والسلف في ذلك، واستفاضت فيه أقوالهم وكتبهم، قال البغوي: " اتفقت الصحابة والتابعون، فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ [الأنفال: ٢-٣] فجعل الأعمال كلها إيماناً"(١).

وقال ابن تيمية: "وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح. فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ. ثم الناس في هذا على أقسام: منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل، ومنهم من صدق جملة وتفصيلًا، ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق، ومنهم من يغفل عنه ويذهل، ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والإيمان، ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم، وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية؛ كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول. ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك"(٢).

وقال ابن القيم مبيناً ومقرّرًا هذا الأصل "وهو حقيقةٌ مركبةٌ ــ أي الإيمان ــ من: معرفة ما جاء به الرسولُ ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نُطقًا، والانقياد له محبَّةً وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا"(٣).

وقال ابن رجب: " والمشهورُ عنِ السَّلفِ وأهلِ الحديثِ أنَّ الإيمانَ: قولٌ وعملٌ ونيةٌ، وأنَّ الأعمالَ كلَّها داخلةٌ في مُسمَّى الإيمانِ. وحكى الشافعيُّ على ذلك إجماعَ الصَّحابةِ والتَّابعين ومن بعدَهم ممَّن أدركهم وأنكرَ السَّلفُ على مَنْ أخرجَ الأعمالَ عنِ الإيمانِ إنكاراً شديداً، وممَّن أنكرَ ذلك على قائله، وجعلَه قولاً مُحدَثاً: سعيدُ بنُ جبيرٍ، وميمونُ بنُ مِهرانَ، وقتادةُ،

(١) شرح السنة للبغوي (٣٩/١).
(٢) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).
(٣) الفوائد لابن القيم (١٥٦).

وأيُّوبُ السَّختيانيُّ، وإبراهيمُ النَّخعي، والزُّهريُّ، ويحيى بنُ أبي كثيرٍ، وغيرُهم. وقال الثَّوريُّ: هو رأيٌ محدَثٌ، أدركنا الناس على غيره. وقال الأوزاعيُّ: كان مَنْ مضى ممَّن سلف لا يُفَرِّقون بين الإيمان والعمل. وكتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى أهل الأمصارِ: أمَّا بعدُ، فإنَّ للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسنناً، فمن استكملَها، استكملَ الإيمانَ، ومن لم يَستكْمِلها، لم يستكملِ الإيمان[1]"[2]. فهذا الأصل من أصول الإيمان أصل مجمع عليه، ولذا كان المخالف فيه مبتدعًا، لشهرة هذا الأصل واستفاضته، ووضوح أدلته الشرعية. فالأدلة مستفيضة من الكتاب والسنة على دخول العمل في مسمى الإيمان، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥] ومن السنة حديث وفد عبد القيس، قال ابن عباس ﷺ: "قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم، فمرنا بجمل من الأمر، إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو إليها من وراءنا، قال: « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتعطوا من المغنم الخمس» [3].

وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على هذا الأصل العظيم، فقوله ﷺ: "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". يفيد الحصر، أي أن الذي يُداوم على الوضوء هو المؤمن، مما يعني أن المحافظة على هذا العمل جزء من حقيقة الإيمان. فلو كان الإيمان شيئًا مجردًا في القلب لا علاقة له بالأعمال، لما رُبطت صفة الإيمان بالمحافظة على عمل ظاهر. **قال ابن حبان:** "أطلق اسم الإيمان على المحافظ على الوضوء، والوضوء جزء من أجزاء الإيمان، كذلك أوقع ﷺ اسم الإيمان على المقر دون العمل به؛ لأنه جزء من أجزاء الإيمان"[4].

وفيه كذلك إثبات أن العمل الظاهر من خصال الإيمان، فالمحافظة على الوضوء ليست من أعمال القلب، بل هي من أعمال الجوارح الظاهرة، وقد جعلها النبي ﷺ علامةً على الإيمان، وهذا يؤكد أن العمل الظاهر يدخل في مسمى الإيمان، لا أنه مجرد أثر له. وهذا مثل قول النبي ﷺ في الحديث الآخر: "الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[5].

(١) ذكره البخاري في صحيحه تعليقًا في كتاب الإيمان، وقد وصله ابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٩٦٢).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٨٢).
(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) رقم (٧٥٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان رقم (١٧).
(٤) انظر: صحيح ابن حبان (١/١٢٩) حديث رقم (١١).
(٥) رواه مسلم، في كتاب

فجعل الأعمال، ومنها هذه الأعمال البدنية، شعبًا من شعب الإيمان.

وفي هذا الحديث ردٌ على المرجئة، فالمرجئة يقولون إن الإيمان هو التصديق فقط، والأعمال غير داخلة في مسمّاه، وهذا الحديث مما يُستدل به على بطلان قولهم، لأنه ربط الإيمان بعمل ظاهر، وهو الوضوء، بل وحصر الإيمان به، فيمن يداوم على هذا العمل، فدل على أن الأعمال داخلة في حقيقة الإيمان لا مجرد ثمرة له.

فهذا الحديث فيه دلالة واضحة على أن الأعمال الظاهرة (كالمحافظة على الوضوء) هي جزء من مسمى الإيمان، وأن الإيمان ليس مجرد اعتقاد قلبي، بل يشمل القول والعمل، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

المبحث الثاني: دلالة الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه.

من أصول أهل السنة والجماعة في باب الإيمان؛ أن الإيمان يزيد وينقص، وزيادته تكون بالطاعات والقربات، ونقصانه يكون بفعل المعاصي والسيئات، وهذا الأصل قد قرّره علماء أهل السنة والجماعة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع وأقوال الصحابة، قال ابن جرير الطبري: "وأما القول في الإيمان هل قول وعمل يزيد وينقص، أم لا زيادة فيه ولا نقصان؟ فإن الصواب فيه قول من قال: هو قول وعمل يزيد وينقص، وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه مضى أهل الدين والفضل"(١).

وقال أبو عمر بن عبد البر: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"(٢).

وقال الإمام ابن بطة: "اعلموا رحمكم الله أن الله ﷻ تفضل بالإيمان على من سبقت له الرحمة في كتابه، ومن أحب أن يسعده، ثم جعل المؤمنين في الإيمان متفاضلين، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ثم جعله فيهم يزيد ويقوى بالمعرفة والطاعة، وينقص ويضعف بالغفلة والمعصية. وبهذا نزل الكتاب، وبه مضت السنة، وعليه أجمع العقلاء من أئمة الأمة، ولا ينكر ذلك ولا يخالفه إلا مرجئ خبيث، قد مرض قلبه، وزاغ بصره، وتلاعبت به إخوانه من الشياطين"(٣).

وقال ابن تيمية: " أجمع السلف على أن الإيمان، قول وعمل، يزيد وينقص"(٤).

وقال ابن القيم: " فإنه بإجماع السلف: يزيد وينقص"(٥).

فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه هو "مذهب جمهور الأمة، بل حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة، كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد"(٦).

ومن الأحاديث الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ قول النبي ﷺ: "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". ويهدف هذا المبحث إلى بيان دلالة هذا الحديث على إثبات زيادة الإيمان ونقصانه.

فحديث "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". يدل على زيادة الإيمان ونقصانه من عدة أوجه: وبيان ذلك كالتالي:

(١) صريح السنة للطبري (٢٥)
(٢) التمهيد (٢٣٩/٩).
(٣) الإبانة الكبرى (٨٣٢/٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).
(٥) مدارج السالكين (٤٢٢/١).
(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢/٤).

ـــ ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن المواظبة على الطهارة دليل على كمال الإيمان، لما فيها من الاستعداد الدائم للعبادة، والتهيؤ لها.

وقوله: "إلا مؤمن" لا يعني نفي الإيمان عمّن لا يحافظ، بل هو نفـي لكمـال الإيمـان، وأن المحافظة على الوضوء من علامات الإيمان الراسخ. فالمحافظ على الوضوء أقوى إيماناً، قال الزرقاني: "ولن (يحافظ على الوضوء) الظاهري والباطني (إلا مؤمن) كامل الإيمان فلا يـديم فعله في المكاره وغيرها منافق، فالظاهري ظاهر، والباطني؛ طهـارة السـر عـن الأغيـار والمحافظة على المجاهدة التي يكون بها تارة غالبًا وتارة مغلوبًا، أي لن تطيقوا الاستقامة فـي تطهير سركم، ولكن جاهدوا في تطهيره مرة بعد أخرى كتطهير الحدث مرة بعد أخرى فـأنتم في الاستقامة بين عجز البشرية وبين الاستظهار بالربوبية، فتكونـون بـين رعايـة وإهمـال وتقصير وإكمال ومراقبة وإغفال، وبين جد وفتور كما أنكم بين حدث وطهور، وفيه اسـتحباب إدامة الوضوء وتجديده إن صلى به لأن تجديده من المحافظة الكاملة عليه"[1] .

وبما أن المحافظة على الوضوء علامة على كمال الإيمان ، فعدمها وتفويتها فيه دلالة علـى نقصانه، ومن قواعد أهل السنة المعتبرة "أن كل دليل دل على زيادة الإيمان فهـو يـدل علـى نقصانه، وكذا العكس، فما دل على نقصان الإيمان فهو يدل على زيادته، فالآيات التي ظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط، هي تدل على نقص الإيمان باللزوم، وذلك؛ لأن الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا علـى نقـص، ولذا كان أهل العلم كثيرًا ما يستشهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصانه، وكذا العكس للأسباب المتقدمة، وتأمل – مثالًا على ذلك صنيع البخاري في صـحيحه، فقـد أورد بعـض الآيـات المصرحة بزيادة الإيمان في (باب زيادة الإيمان ونقصانه) مستدلًا بها على الزيادة والنقصـان معًا"[2].

وقد جاء عن بعض الأئمة التصريح بذلك، فقد روى الخلال عن صالح ابن الإمام أحمـد أنـه قال: "سألت أبي، ما زيادته ونقصانه أي (الإيمان)؟ قال: "زيادته العمل، ونقصانه ترك العمـل، مثل تركه الصلاة، والزكاة، والحج، وأداء الفرائض، فهذا ينقص، ويزيد بالعمـل" وقـال: "إن كان قبل زيادته تاما، فكيف يزيد التام، فكما يزيد كذا ينقص"[3].

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ (١٦٦/١).

(٢) زيادة الإيمان ونقصانه لعبدالرزاق البدر بتصرف يسير (٥١).

(٣) السنة للخلال (٥٨٨/٣)، رقم (١٠٣٠).

ـ وفي هذا الحديث كذلك ربطٌ بين عمل ظاهر وفعل اختياري وهو الوضوء وبين الإيمان، فقوله ﷺ: "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". يدل على أن العمل يزيد الإيمان، وأن المحافظة على الوضوء علامة على وجود الإيمان وقوته، وهذا يعني أن كلما زاد حرص العبد على الطهارة والوضوء، زاد إيمانه، وإذا فتر عن ذلك دلّ على ضعف إيمانه. وهذا يؤكد أن الإيمان يتفاضل بين الناس، وليس شيئًا واحدًا ثابتًا، بل هو يزيد بالأعمال الصالحة وينقص بتركها. والمحافظة على الوضوء طاعة متكررة، والإيمان يزيد بالطاعة والوضوء يتكرر يوميًا مع كل صلاة، ومَن يحرص على تجديده ويعتني به إنما يجاهد نفسه على طاعة الله، وهذا من أوضح صور ازدياد الإيمان. والتفاوت في المحافظة على الوضوء يدل على تفاوت الناس في الإيمان، وهو عين القول بالزيادة والنقصان. فمن كان دائم الطهارة، كثير الوضوء، دلّ ذلك على نشاطه في الطاعة وخوفه من الله، وهذه كلها أحوال قلبية وبدنية تزيد بها درجات الإيمان.

ونفي المحافظة عن غير المؤمن يدل على نقص الإيمان بترك العمل فقوله ﷺ: "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن"، يُفهَم منه أن من لم يُحافظ على الوضوء فيه نقص في الإيمان، وهذا يدل صراحة على أن الإيمان ينقص بترك بعض الطاعات.

والعلاقة بين المحافظة على الوضوء وزيادة الإيمان ظاهرة، فإن المحافظة على الوضوء من العبادات الخفية التي لا يحسنها ويحافظ عليها إلا من يؤمن بالله واليوم الآخر، وأيقن بموعود الله، وعظّم شرائع الله، فيراقب الله جل وعلا ويحتسب الأجر ويعمل لآخرته، خاصة مع وجود المكاره كشدة البرد وغيرها، فالذي يحرص على ذلك، وعلى المحافظة عليه ولا يتهاون ويأتي به على الوجه المشروع هو المؤمن الصادق الذي وقر الإيمان في قلبه وزكى ونما، فظهرت هذه الآثار على جوارحه، قال الباجي: "وقوله: و(لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) يريد والله أعلم أنه لا يديم فعله بالمكاره وغيرها منافق ولا يواظب على ذلك إلا مؤمن"(١). وقال المباركفوري: "(إلا مؤمن) أي كامل في إيمانه فإن الظاهر عنوان الباطن، فطهارة الظاهر دليل على طهارة الباطن سيما الوضوء على المكاره"(٢). فالمنافق لمّا كان الإيمان في قلبه ضعيفًا وناقصًا لا يكون منه هذا الفعل الطيب وهو المحافظة على الوضوء والمداومة

(١) المنتقى للباجي (١/٧٤).
(٢) مرعاة المفاتيح (٢/١٣).

على ذلك مع المكاره والصعوبات. قال ابن رجب: " وأيضًا ــ فالوضوء من خِصال الإيمان الخفيَّة التي لا يُحافِظُ عليها إلاَّ مُؤمنٌ، كما في حديث ثوبان وغيره"[1].

فهذا الحديث يدل بوضوح على أن الإيمان يزيد بالأعمال كما في المحافظة على الوضوء، وينقص بتركها أو التهاون فيها، وأن الأعمال من أسباب زيادة الإيمان،كما قرره علماء أهل السنة. وهذا الحديث من النصوص الكثيرة التي تجعل العمل جزءًا من الإيمان، وترتب عليه صفات ومدائح للمؤمنين. فمن حافظ على الوضوء كان ذلك دلالة على رسوخ إيمانه وكماله، ومن تساهل فيه نقص من إيمانه بحسب ذلك. قال شيخ الإسلام: "أهل السنة متفقون على أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، كما قال الله تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾، وكما قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»."[2].

وفي هذا الحديث رد واضح على المرجئة الذين يقولون: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والعمل ليس منه. وهذا الحديث جعل العمل وهو: المحافظة على الوضوء دالًّا على كمال الإيمان في العبد، ومفهوم المخالفة لهذا الحديث أن الذي لا يُحافظ على الوضوء ناقص في إيمانه، ففيه نقضٌ مباشر لأصلهم الفاسد.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٤٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٨٧/٧).

المبحث الثالث: دلالة الحديث على التلازم بين الظاهر والباطن

من أصول منهج السلف في باب الإيمان أن الإيمان حقيقة مركبة من قول القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح، فهذه الأجزاء الأربعة تتكون منها حقيقة الإيمان، وهي متصلة ببعضها ومتلازمة، لا ينفك أحدها عن الآخر، قال سفيان الثوري: " ولا يجوز القـول إلا بالعمـل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بمتابعة السنة"(١).

والتلازم بين الظاهر والباطن في باب الإيمان تشهد له دلائل الكتاب والسـنة وحقـائق العقـل والفطرة؛ وتتفق في إثبات العلاقة بينهما، فالباطن يقتضي الظاهر، والظاهر يدل على البـاطن، ولذا كان التفريط في حقائق الإيمان الظاهرة يدل على التقصير في حقائقـه الباطنـة، ففسـاد الباطن يحمل على فساد الظاهر .

قال الله تعـالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١-١١] . فهذه الآيات دلّت على أن الإيمـان أثمـر تلك الخصال الظاهرة الطيبة من الخشوع في الصلاة والإعراض عن اللغو وفعل الزكاة وحفظ الفرج وغيرها، فالإيمان لمّا وقر في القلب ظهر أثره على الجوارح والأبدان. وفي ذلك دليـل على تلازم الباطن والظاهر.

وقال النبي ﷺ: " ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسـدت فسـد الجسد كله، ألا وهي القلب"(٢). " فبيّن أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح فعلم أن من يـتكلم بالإيمـان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً، حتى إن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلا بـد أن يـتكلم مع نفسه، وفي السر مع من يأمن إليه، ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ... وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط؛ فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان. وذلك أن الجسد تابع للقلب، فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن"(٣).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (١٧٠/١).

(٢) رواه البخاري، في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه برقم (٥٢). ومسلم في كتاب الإيمان، برقم (١٥٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢١/١٤).

قال ابن تيمية: "وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة؛ والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه؛ ودليله ومعلوله كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب. فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه"(١).

وقال أيضًا: " وإذا أفرد الإيمان أدخل فيه الأعمال الظاهرة لأنها لوازم ما في القلب؛ لأنه متى ثبت الإيمان في القلب والتصديق بما أخبر به الرسول وجب حصول مقتضي ذلك ضرورة؛ فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه فإذا ثبت التصديق في القلب لم يتخلف العمل بمقتضاه ألبتة فلا تستقر معرفة تامة ومحبة صحيحة ولا يكون لها أثر في الظاهر. ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه؛ فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١] ، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب"...ولهذا كان الظاهر لازمًا للباطن من وجه وملزومًا له من وجه، وهو دليل عليه من جهة كونه ملزومًا، لا من جهة كونه لازمًا؛ فإن الدليل ملزوم المدلول يلزم من وجود الدليل وجود المدلول ولا يلزم من وجود الشيء وجود ما يدل عليه والدليل يطرد ولا ينعكس بخلاف الحد فإنه يطرد وينعكس"(٢).

وهذا الحديث: **حديث (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)** فيه دلالة واضحة وصريحة على أصل التلازم بين الظاهر الباطن، فقول النبي ﷺ: "لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" دل بمنطوقه على أن المحافظة على العمل الظاهر، وهو الوضوء دليل على وجود الإيمان في الباطن، وأن هناك ترابط بين العمل الظاهر وصحة الباطن، والحديث يدلّ على أن المحافظة نابعة من إيمان قلبي، فربط بين الظاهر (الوضوء) و الباطن (الإيمان)، فالحديث يُظهر التلازم الوثيق بين أعمال الجوارح وما في القلب، وكان السلف يرون أن من علامات صحة الإيمان؛

(١) مجموع الفتاوى (٥٤١/٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧٣/١٨).

الانقياد الظاهر، قال الحسن البصري: " ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكن ما وقر في القلب، وصدّقه العمل"[(١)]. "وقوله: ليس الإيمان بالتمني – يعني الكلام – وقوله: بالتحلي. يعني أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيمانًا، وإذا لم يكن عمل كذّب أن في قلبه إيمانًا لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر"[(٢)].

فقوله ﷺ: "لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"؛ دلالته واضحة على أن المحافظة على الطهارة الظاهرة والوضوء ليست مجردة عمّا في القلب، بل نابعة من إيمان قلبي عميق، فمن داوم عليها دلّ ذلك على ما في قلبه من إيمان وتقوى، ومن تهاون فيها دلّ ذلك أيضًا على ضعف إيمانه وتقواه، وهذا دليل واضح على التلازم بين الظاهر والباطن، والتلازم بين قول القلب وعمله وبين عمل الجوارح. والوضوء طهارة حسية لا يحافظ عليه إلا من تطهر قلبه من الذنوب والمعاصي وتحلّى بالطهارة المعنوية وهي طهارة الإيمان والإحسان. فالحديث دلالته صريحة على إثبات أن العمل الظاهر دليل على الإيمان في الباطن، فمفهوم المخالفة من الحديث نفي الإيمان عن غير المحافظ على الوضوء، وهذا يؤكد أن الظاهر تابع للباطن، وأن من استقامت جوارحه؛ فإن ذلك ثمرة استقامة قلبه، ولو كان الإيمان مجرد اعتقاد منفك عن الظاهر لما رُبط بالوضوء وهو من الأعمال الظاهرة.

والإيمان المقصود به في هذا الحديث هو الإيمان المُطلق وليس مُطلق الإيمان، وأن المنفي بمفهوم المخالفة هو الإيمان المُطلق، وبينما فرق، قال ابن القيم: " فالإيمان المطلق لا يطلقُ إلا على الكامل الكاملَ المأمور به، ومطلقُ الإيمان يطلقُ على النَّاقص والكامل، ولهذا نفى النبيُّ ﷺ الإيمانَ المُطلق عن الزَّاني وشارب الخمر والسَّارق ولم ينفِ عنه مطلق الإيمان"[(٣)].

وهذا الحديث من أقوى ما يُحتج به على المرجئة القائلين بإخراج العمل عن مسمى الإيمان، وأنه لا تلازم بين الظاهر والباطن، فمفهوم المخالفة من الحديث نفي الإيمان (وهو عمل قلبي باطني) عمن لا يحافظ على الوضوء (وهو عمل ظاهري من أعمال الجوارح). وما ذاك إلا لوجود التلازم بين ما في القلب من الإيمان والتصديق وبين الجوارح والأعمال الظاهرة، ولو

(١) مصنف بن أبي شيبة (٢٩/١٧). برقم (٣٢٣٦٥)
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩٤/٧).
(٣) بدائع الفوائد (١٣٢٥/٤).

لم يكن هناك تلازم لما أثبت الإيمان للمحافظ عليه، بل حصره فيه، ففي قوله ﷺ: "إلا مـــؤمن"، حصر للإيمان فيه، وفيه نفيه عن غير المحافظ.

فالوضوء لا يواظب عليه ويُحافظ إلا من كان في قلبه إيمان راسخ، مما يقرر أن الظاهر تـــابع للباطن، لا كما تقول المرجئة بانفكاكهما.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتمَّ بفضله وتيسيره هذا البحث، وبعد هذا التطواف اليسير في هذا البحث؛ تبيّن لي ما يلي:

١- أهمية تأصيل مسائل الإيمان وأحكامه من خلال الأدلة الشرعية الصحيحة، وأن منهج أهل السنة والجماعة يستند في ذلك على الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح بلا تحريف ولا تأويل يخالف النصوص.

٢- ضرورة دراسة مسائل الإيمان وتعليمها وبيان مقتضياتها لما في ذلك من آثار طيبة ونتائج حميدة على المسلمين في دينهم ودنياهم. فكلما تأصّل مفهوم الإيمان الصحيح عند المسلم وأنه حقيقة مركبة من القول والعمل قاده ذلك إلى خيري الدنيا والآخرة، ورأى آثاره المباركة على عقيدته وإيمانه وسلوكه ومنهجه.

٣- أن حديث : "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". من أعظم أدلة أهل السنة والجماعة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، فلو كان الإيمان شيئًا مجردًا في القلب لا علاقة له بالأعمال، لما رُبطت صفة الإيمان بالمحافظة على عمل ظاهر.

٤- أن حديث : "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". فيه دلالة واضحة على زيادة الإيمان ونقصانه، فالمحافظ على الوضوء أقوى إيمانًا، وبما أن المحافظة على الوضوء علامة على كمال الإيمان ، فعدمها وتفويتها فيه دلالة على نقصانه.

٥- أن حديث : "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". من أكبر الدلائل على التلازم بين الظاهر والباطن، فقد دل بمنطوقه على أن المحافظة على العمل الظاهر، وهو الوضوء دليل على وجود الإيمان في الباطن، وأن هناك ترابط بين العمل الظاهر وصحة الباطن، فالحديث دلالته صريحة على إثبات أن العمل الظاهر دليل على الإيمان في الباطن.

٦- أن حديث : "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". فيه دلالة واضحة على أن الإيمان الصحيح يظهر أثره على الجوارح، ولا ينفكُّ عنها.

٧- أن حديث : "لا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن". من الأدلة التي تبيّن بطلان مذهب المرجئة في الإيمان، فهذا الحديث في رد على المرجئة في جميع انحرافاتهم في باب الإيمان وذلك لدلالته الصريحة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، وعلى زيادة الإيمان ونقصانه، وعلى التلازم بين الظاهر والباطن، ففيه نقض مباشر لأصولهم الفاسدة.

٨- أن المراد بالإيمان في هذا الحديث؛ هو الإيمان المُطلق، وليس مُطلق الإيمـــان، وبينهمـــا فرق قرّره علماء السنة كابن تيمية وابن القيم وغيرهم.

أهم التوصيات:

١- دراسة الأحاديث النبوية دراسة عقدية، وتكثيف البحوث حولها، وبيان منهج أهـــل الســـنة والجماعة من خلالها.

٢- ضرورة تأصيل مسائل الأسماء والأحكام وبيان منهج أهل السنة والجماعة في ذلك مـــن خلال الدراسات الأكاديمية وأبحاث الترقية.

٣- تكثيف الجهود من خلال الأبحاث والدراسات الأكاديمية في الرد على أصحاب المـــذاهب المنحرفة وكشف ضلالاتهم في ضوء الأدلة الشرعية، وذلك عن طريق دراسة الأحاديث وإفرادها في ذلك.

والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

قائمة المصادر والمراجع:

- إرواء الغليل في تخريج منار السبيل، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، ١٤٠٥هـ.
- الإيمان لابن منده، أبو عبد الله محمد بن مَنْدَه ، تحقيق د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط الثانية، ١٤٠٦
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت علي العمران، دار عطاءات العلم، ط١، ١٤٤٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت سامي السلامة، دار طيبة الخضراء، ط٣، ١٤٢٦هـ.
- التمهيد ، ابن عبد البر النمري ، حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف، وآخرون، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي لندن ط١ ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٧ م
- التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، عبدالرحمن السعدي، دار طيبة، ط١ ١٤١٤هـ.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، أبو الحجاج يوسف المزي ، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١ الأولى١٤٠٠
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب تعليق وتحقيق: الدكتور ماهر ياسين الفحل، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق ماهر الفحل، ط١، ١٤٢٩هـ.
- زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبدالرزاق البدر، دار القلم، ط١، ١٤١٦ه.
- السنة، أبو بكر الخَلَّال ، تحقيق د. عطية الزهراني، دار الراية ، ط١ ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م
- سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، درسه وضبط نصوصه وحققها: الدكتور/ مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، الناشر: (بدون ناشر) (طُبع على نفقة رجل الأعمال الشيخ جمعان بن حسن الزهراني)
- السنن الكبير، أبو بكر البيهقي ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية – القاهرة، ط١ ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م
- شرح الزرقاني على موطأ مالك، محمد الزرقاني، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٤.
- شرح السنة، البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ.

- شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلي عبد الحميد حامد [ت ١٤٤٣ هـ] أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي [ت١٤٢٨ هـ]، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد ، ط١ ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار التأصيل، ط١، ١٤٣٣ه.
- صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، طبعة دار التأصيل، ط١، ١٤٣٣ه.
- صريح السنة، أبو جعفر الطبري ، تحقيق: بدر يوسف المعتوق، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت، ط١ ١٤٠٥ط٢ ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.
- علل الترمذي الكبير، أبو عيسى الترمذي، رتبه على كتب الجامع: أبو طالب القاضي المحقق: صبحي السامرائي ، أبو المعاطي النوري ، محمود خليل الصعيدي، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية – بيروت ط١ ١٤٠٩
- الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، ط٤، ١٤٤٠ه.
- الكتاب: مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود الطيالسي ، تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر – مصر، ط ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة ، عام النشر: ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ت محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، ط٢، ١٤٤١ه
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، طبعة الدار السلفية بالهند، ط٣، ١٤٠٤ه.
- المستدرك على الصحيحين، الله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١٤١١ هـ
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، البوصيري الكناني الشافعي، محمد المنتقى الكشناوي ، دار العربية بيروت ط٢، ١٤٠٣ هـ
- المصنف، أبو بكر بن أبي شيبة ، ت سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض السعودية، ط١، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م.

- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، أبو معاذ طارق بـــن عـــوض الله ، دار الحرمين – القاهرة، عام النشر: ١٤١٥ هـــ – ١٩٩٥ م
- المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٤٣٢هـ.